المجمعيّ الحي الشيخ عبد القادر المغربي
[١٨٦٨- ١٩٥٦م]
داعية الإصلاح والتجديد

د. عبد الكريم الأشتر

- ١ -

رأيته مرة واحدة، وكان قارب أن يتعدى الثمانين، يمشي مثقلاً بعبء السنين. على رأسه عمامة بيضاء، وإلى جانبه فتاة سافرة، عرفت، من بعد، أنها ابنته. كان المنظر آنذاك - قبل نصف قرن - لا يخلو من الغرابة. وكان أوشك أن يدخل سوق الحميدية، فرأيت الناس، على الجانبين، يتطلَّعون فيه: قرنان من الزمان تجمعهما صورة واحدة! كنت يومها (١٩٤٨) طالبًا في الجامعة. وكنت في صحبة زميل يعرفه، فأشار إليه يقول: «الشيخ المغربي»!

إن من الشخصيات التي طالما تمنيت لو كنت لقيتها، زعيم مدرسة الإصلاح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م)، فالشيخ المغربي واحد من تلامذته، وله عنه كتاب صغير صدر في سلسلة «اقرأ»[(١)]، التي كانت تصدر في القاهرة. وقد كان يمكنه، لو عرفته قبلها، أن يحدِّثني عن هذا الرجل الغريب الذي حمل عصاه وجال في العالم الإسلامي: «يكرُز بالإصلاح»، فيهز الدول القائمة فيه، ويحرِّك العقول، ويعصف بالرجال: من أي المذاهب هو؟ وإلى أي وطن ينتسب؟ وكيف زلّت قدمه يومًا فدخل أقبية الماسونية؟[(٢)]، وما المعاني التي تكمُن وراء لغته الغريبة أحيانًا؟ وكيف أُتيح له أن يطّلع على هذا الخليط من

---

(1) العدد (٦٨) (ضمن قائمة السِيَر والتراجم).

(2) راجع (خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني) – دار الفكر الحديث بلبنان (الطبعة الثانية ١٩٦٥) ص (١٧) وما بعدها.

الثقافات؟ وبأي لغة كان يقرؤها؟ وكيف كان ينظر إلى القضية المثارة من أيامه إلى اليوم، وسمّوها «تحرير المرأة».

على أنه لم يخلِّف كتبًا كثيرة، فكتبه لا تزيد على ثلاثة أو أربعة، هي أقرب إلى الرسائل منها إلى الكتب(١)، وله الخاطرات التي دوّنها عنه أحد تلامذته «محمد المخزومي»(٢). ولكنه خلّف مدرسة فكرية طلعت من جبّتها جميع حركات الإصلاح التي نعرفها: في الدين والاجتماع والسياسة واللغة.

فالشيخ المغربي واحد من تلامذة هذه المدرسة البارزين. ولعله أكثرهم التزامًا بالفكر الإصلاحي نظرًا وممارسة. كان يرى، مثلاً، أن الحجاب يعني ألا تتبرَّج المرأة، وألا تخلو برجل أجنبي، وألا تسافر إلا في صحبة أحد محارمها. فأما الحجاب الشائع – في رأيه – فما يتفق مع ما للمرأة من حرية التصرف التي كفَلها لها الإسلام. فأباح لابنته أن تخرج سافرة. ومشى، بعمامته وجبَّته، إلى جانبها في السوق. وناصر قاسم أمين(٣)، صاحب كتاب «تحرير المرأة»(١)،

(1) من رسائله: نفي مذهب الدُّهريين (كتبها وهو في الهند). اختصرت في آخر كتاب (الخاطرات) الذي أشرنا إليه في الحاشية السابقة. وانظر مجموعة (العروة الوثقى): مطبعة التوفيق ببيروت ١٣٢٨هـ.

(2) في مقدمتها كلمة لمالك بن نبي (المفكر الجزائري) حيًّا فيها دور الأفغاني في «نهضة الأمة».

(3) قاسم بن محمد أمين المصري (ت١٩٠٨). درس الحقوق في فرنسة، وعمل في القضاء بمصر، وتوفي فيها. كانت له صلة بالشيخ محمد عبده، وقيل: إن هذا نظر في كتابه (تحرير المرأة) قبل أن يُنشر. (انتقد فيه تعدُّد الزوجات والطلاق والحجاب).

انظر كتابًا لماهر حسن فهمي. (قاسم أمين) من سلسلة أعلام العرب – القاهرة، دون تاريخ. ولكاتب هذه السطور فصل بعنوان (قضية المرأة من منظورين: بين العقَّاد وقاسم أمين)، من كتاب (فواصل صغيرة في قضايا الفكر والثقافة العربية) ص (٩٣) وما بعدها دار طلاس – دمشق ٢٠٠٢م.

وتلميذ المدرسة الإصلاحية نفسها، وامتدحه وردَّ على منتقديه. ووصل في رده إلى أن يقول: ((إن مسلمي اليوم، على الحال التي هم عليها، ليسوا بمسلمين)). فثار به الناس، واتهموه بالكفر والمروق. وأمضى حياته كلها في ظل هذه الحملة القاسية.

كان يدعو إلى فتح باب الاجتهاد بشروطه الشرعية: الكفاية والإخلاص. ويرى أنه أصل من أصول التقاليد العلمية في الإسلام. واجتهد لنفسه فكتب يحبِّذ التمثيل على المسارح. ثم خاض البحر فترجم عن الفرنسية التي كان يقرؤها، رواية دوماس الابن الشهيرة (غادة الكاميليا)La Dame aux Camelias. ثم أضاف إليها، هو نفسه، بعض الأدوار الغنائية، وعرضها على الشيخ سلامة حجازي[٢]، فمثَّلتها فرقته سنة ١٩٠٨، على مسارح القاهرة، باسم ((النجم الآفل)).

وكان ينتقد لغة الكتابة أيامه ويدعو إلى تبسيطها، فجعل من كتابته مثلاً في تبسيط الجملة واختيار المفردات المطروقة. وزاد فدعا إلى التوسع في تعريب المفردات الأعجمية، وقال: ((إن التردد في قبولها أخلَّ بنهضتنا اللغوية وأخّرها أكثر من نصف قرن)).

ثم لم يكتف بذلك فصنع، هو نفسه أيضًا، معجمًا جمع فيه هذه الألفاظ مقسَّمة على الموضوعات، لكنه لم يكمله. وكان من أوائل الداعين إلى تكوين معجم حديث يفي بحاجات الحياة المعاصرة، ويُقصَر على مفردات اللغة المستعملة، وتُضاف إليها المفردات الجديدة الدخيلة والمولّدة والمنحوتة والمشتقة، مما تستدعيه حاجات الناس إذا كتبوا أو تكلَّموا أو قرؤوا ما يكتبه أهل العصر. ثم

(1) صدر في القاهرة كتابه الآخر (المرأة الجديدة).

(2) (ت١٩١٧). يعدُّ من مؤسِّسي الحركة التمثيلية الغنائية. من كبار المغنيين. حسن الصوت. كانت له فرقة يطوف بها.

رأى أن يكتب، منذ مطلع القرن العشرين، كتابًا في «الاشتقاق والتعريب» يُعين على تنمية اللغة وتوسعتها، فكتبه، وأصدره سنة ١٩٠٨.

ورأى في الناس عزوفًا عن التراث، فاستعان بنزوعه إلى الفن القصصي، وعرض من التراث نصوصًا جميلة كتبها على نحو قصصي جذّاب، نجدها في كتابه «محمد والمرأة، ومحاضرات أخرى».

– ٢ –

أُحب أن أقول: إن الشيخ عبد القادر المغربي من الرجال القليلين الذين «عاشوا أفكارهم»، حسب التعبير الدارج اليوم، وطبَّقوها في أنفسهم، في مرحلة درج كثير من الناس فيها على أن يغلّفوا أنفسهم بالأفكار. ورضي أن يحارب في أكثر من جبهة واحدة: في السياسة والدين واللغة والاجتماع.

رأى، مثلاً، أن يقف إلى جانب المدافعين عن الخلافة، ولكنه لم يسكت عن نقدها. فحين بنى السلطان عبد الحميد ضريحًا لوالد أبي الهدى الصيادي[1]، (الرجل الذي قام بِدَوْرٍ في حياة الخلافة العثمانية، آخر أيامها، واحتجن لنفسه نقابة الأشراف) نظم المغربي شعرًا نقد فيه مسلك الخليفة، ونعى عليه إسرافه في بناء الضريح، وتقريبه الحمقى والجهّال من مقام الخلافة. وارتضى لنفسه أن يدخل السجن بعدها.

وكان من أوائل الدعاة إلى إنشاء المدارس العصرية بدل الكتاتيب التي كان

---

(1) أبو الهدى الصيادي (١٨٤٩- ١٩٠٩). وُلد في خان شيخون (من أعمال حلب)، وغلب على السلطان عبد الحميد. اختُلف في شأنه، وخاصمه الإصلاحيون (جمال الدين الأفغاني وغيره). رُمي بالمخرفة، ومات منفيًا بعد ثورة ١٩٠٨. جُمعت أخباره في كتاب باسمه (دار البشائر بدمشق ٢٠٠٣) وجُمع شعره أيضًا.

التعليم فيها مقصورًا على قراءة القرآن الكريم. ونهى عن زيارة القبور. ودعا إلى تحرير اللغة من أساليب الخطابة وبهلوانياتها اللفظية. وإلى تبسيط التعبير وتقريبه من أفهام الناس. وكان يُذكَر في الداعين إلى إنشاء الجامعة في مصر، وتطوير أساليب التعليم في الأزهر، وإلى تمكين التسامح الديني في نفوس الناس. ويهتم بأقطار المغرب العربي، وبالأقطار الإسلامية البعيدة. مثل جاوة والهند.

ثم لما أُسِّست الجامعة السورية «جامعة دمشق» شارك في تصحيح كتبها، في كليتي الطب والحقوق، فقوّم لغتها، وأدخل فيها مصطلحات جديدة.

– ٣ –

فمن هو هذا الشيخ المغربي؟

هو من أصل تونسي. هاجرت أسرته من تونس لأسباب سياسية، وتولَّى جَدّه منصب الإفتاء في اللاذقية وطرابلس الشام. ثم سكنت أسرته هذه المدينة، وشُهرت بالفقه والقضاء، ونُسبت إلى المغرب. وكان أبوه على صلة بالأمير عبد القادر الجزائري في الشام.

كانت لأبيه خزانة عامرة بالكتب المخطوطة والمطبوعة، فانكبَّ الطفل عليها، وأتمّ حفظ القرآن الكريم قبل أن يجاوز العاشرة. ثم دخل المدرسة الوطنية في طرابلس، وهي أول مدرسة عصرية أُنشئت في ديار الشام. وفيها عرف الشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده. وتأثَّرَ الفَتَيان بالنزعة الإصلاحية، وقرأا جريدة «العروة الوثقى»[١]، التي كان السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده يُصدرانها في باريس. وبدأا يتمرسان بالكتابة في الصحف، فتحررت لغتهما من

(1) لم تستوف، في صدورها، أكثر من ثمانية عشر عددًا في سبعة أشهر: صدر الأول في ١٥/ ٥/ ١٣٠١هـ ١٣/ ٣/ ١٨٨٤م، وصدر الأخير في ٢٦/ ١٢/ ١٣٠١هـ- ١٦/ ١٠/ ١٨٨٤م. انظر طبعتها القديمة – بيروت، مطبعة التوفيق لصاحبها نسيب صبرا ١٣٢٨هـ.

الأساليب القديمة وقيود الصنعة اللفظية.

ثم لقي، وهو في ميْعة الصبا، السيد جمال الدين في الآستانة، في نهاية القرن التاسع عشر، وصحبه سنة كاملة كانت نقطة الفصل الحاسمة في اتجاهه إلى الإصلاح، وتحرير فكره من الأوهام. ومن يقرأ كتابه الذي كتبه عن السيد جمال الدين «في سلسلة اقرأ» يدرك مبلغ ما خلَّف هذا الداعية الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، في عقل الشاب المغربي.

ثم إنه اتجه إلى الصحافة، فحرّر في الصحف إلى جانب محمد كرد علي، فزاد ذلك من تمرُّسه بالإنشاء الحي وأساليب النقد الاجتماعي. ثم أنشأ صحيفة «البرهان» في طرابلس، وشارك في إنشاء «الكلية الصلاحية» في القدس، ودرّس فيها، فأعانه ذلك كله على بلوغ مرتبة النضج في الفكر والتعبير. ثم أصبح المجمعُ العلمي في دمشق «مجمع اللغة العربية اليوم» مجلس نشاطه، فانتقل إلى دمشق، وسكنها إلى نهاية العمر.

لم يكن يغادر الكتاب. وقد تمضي أيام كثيرة، وهو منكبٌّ عليه، لا يغادر بيته. ولكن الكتاب لم يقطعه، في مراحل عمره كلها، عن صلته بالحياة، فظل وفيًّا للإصلاح والتجديد، وحربًا على الجمود في كل الميادين.

* * *

ما أجلّه! وما أصدقه! وما أروع جرأته! ما أقربه منا! وما أعظم ما كان يمكنه أن يخلّف في حياتنا من أثر لو أنصفناه!